مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية
ISSN 2170-0370/E-ISSN 8127-2710
المجلد13- العدد1/ 2022،ص ص 361- 387

تطور الوضع السياسي والعسكري بالجزائر في عهد البيلربايات1519 - 1587م (عهد خير الدين باربروس1519 – 1546م)

Development of the political and military situation in Algeria the period of Pilgrims rule from 1519 to 1587

د. شوقي عبد الكريم*

- جامعة الجزائر2– (الجزائر)، krimchougui@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2021/09/19 ؛ تاريخ القبول : 2021/11/05 ؛ تاريخ النشر : 2022/01/30

الملخص

عرفت الجزائر في مرحلة من المراحل التي قطعتها خلال مسيرتها التاريخية، وبالضبط مع مطلع العصر الحديث ارتباطا خاصا بالخلافة العثمانية، وذلك ابتداءً من عام 1519م وإلى غاية 1830م، اختلف في جوهره وظاهره عن غيره من الأقاليم والدول التي انضوت تحت رايتها، وذلك لعدة معطيات وظروف سوف يتم ذكرها في مقامها، وعموما فإن الجزائر مرت خلالها بعهدين، أو بالأحرى بشكلين من أشكال الارتباط، الأول تميز بالارتباط القوي بالخلافة العثمانية وبسلاطينها، الذين كانوا يعينون حكامها وينهون مهامهم في جو من الانضباط والطاعة التامة، كما كانت الجزائر فيه تمثل امتدادا للخلافة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط إلى أقصى حد، وضم كل من مرحلة حكم البيلربايات من 1519م إلى 1587م، ومرحلة حكم الباشوات من 1587م إلى 1659م، وامتد بذلك من عام 1519م إلى 1659م. أما العهد الثاني للوجود العثماني بالجزائر، فيعتبر عهد

Abstract

Algeria had known during its historical path, and especially with the beginning of the modern era, a special attachment with the Ottoman Caliphate, starting from 1519 until 1830, this attachment was different from the other countries which were under its banner according to several data and circumstances which will be mentioned after. Generally, Algeria passed through it two eras, or two forms of attachment, the first one was characterized by the strong link with the Ottoman Caliphate and its sultans, who had the ability to designate and dismissal its rulers in an atmosphere of discipline and complete obedience, as Algeria was an extension of the Ottoman Caliphate in the Mediterranean Western Basin to the maximum extent, and it included both the period of Pilgrims rule from 1519 to 1587, and the period of Pashas rule from 1587 to 1659, and thus extended from 1519 to 1659. Concerning

التبعية غير المباشرة، أو عهد الارتباط الضعيف، وضم كلا من مرحلة حكم الأغاوات من 1659م إلى 1671م، ومرحلة حكم الدايات بقسميها (الدايات العاديين، والدايات الباشوات) من 1671م إلى 1830م، وامتد بذلك من عام 1659م إلى 1830م، حيث كان حاكم الجزائر يحظى فيه أولا بإجماع الديوان، الذي يضم القادة المسيرين بالجزائرعلى توليه الحكم، قبل مراسلة السلطان العثماني من أجل تجديد الولاء والحصول على التزكية، التي أصبح الحصول عليها شكليا، وبذلك لم يصبح حكام الجزائر خاضعين خضوعا كاملا للسلطة المركزية، بل سجل في العديد من المرات تعارض واضح في المواقف بينهم وبين سلاطين الدولة العثمانية من قضايا جد هامة، سواء في العلاقات مع بعض الولايات العربية، أو بعض الدول الأوروبية وغيرها.

الكلمات المفتاحية : الجزائر ; الاسبان ; خيرالدين ; الخلافة العثمانية ; شارل الخامس ; تلمسان

the second era of the Ottoman presence in Algeria, is considered the Era of the indirect dependency, or the Era of the weak attachment, and it included both the period of the Aghas rule from 1659 to 1971, and the period of the Deys rule, which was divided in two sections (ordinary Deys and the Pashas) from 1671 to 1830, and this rule extended from 1659 to 1830, when the ruler of Algeria regrouped the members of the EL Diwane, composed of the leaders in Algeria on his assumption of power, before writing to the Ottoman sultan in order to renew allegiance and obtain acclamation, which became a formality, as result the rulers of Algeria became independent from the central authority, and many contradictory positions were born between them and the sultans of the Ottoman Empire in several occasions on very important issues, whether in relations between some Arab states, or some European countries and others.

Keywords *: Algeria ; the Spaniards ; Khair al-Din ; the Ottoman Caliphate ; Charles V ; Tlemcen*

*المؤلف المراسل.

مقدمة:

عرفت الجزائر في مرحلة من المراحل التي قطعتها خلال مسيرتها التاريخية، وبالضبط مع مطلع العصر الحديث ارتباطا خاصا بالخلافة العثمانية، وذلك ابتداءً من عام 1519م وإلى غاية 1830م، اختلف في جوهره وظاهره عن غيره من الأقاليم والدول التي انضوت تحت رايتها، وذلك لعدة معطيات وظروف سوف يتم ذكرها في مقامها، وعموما فإن الجزائر مرت خلالها بعهدين، أو بالأحرى بشكلين من أشكال الارتباط، الأول تميز بالارتباط القوي بالخلافة العثمانية وبسلاطينها، الذين كانوا يعينون حكامها وينهون مهامهم في جو من الانضباط والطاعة التامة، كما كانت الجزائر فيه تمثل امتدادا للخلافة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط إلى أقصى حد، وضم كل من مرحلة حكم البيلربايات من 1519م إلى 1587م، ومرحلة حكم الباشوات من 1587م إلى 1659م، وامتد بذلك من عام 1519م إلى 1659م.

أما العهد الثاني للوجود العثماني بالجزائر، فيعتبر عهد التبعية غير المباشرة، أو عهد الارتباط الضعيف، وضم كلا من مرحلة حكم الأغاوات من 1659م إلى 1671م، ومرحلة حكم الدايات بقسميها (الدايات العاديين، والدايات الباشوات) من 1671م إلى 1830م، وامتد بذلك من عام 1659م إلى 1830م، حيث كان حاكم الجزائر يحظى فيه أولا بإجماع الديوان، الذي يضم القادة المسيرين بالجزائر على توليه الحكم، قبل مراسلة السلطان العثماني من أجل تجديد الولاء والحصول على التزكية، التي أصبح الحصول عليها شكليا، وبذلك لم يصبح حكام الجزائر خاضعين خضوعا كاملا للسلطة المركزية، بل سجل في العديد من المرات تعارض واضح في المواقف بينهم وبين سلاطين الدولة العثمانية من قضايا جد هامة، سواء في العلاقات مع بعض الولايات العربية، أو بعض الدول الأوروبية وغيرها.

وللوقوف على حقيقة ذلك الارتباط، وكيفية تطور الوضع السياسي والعسكري بالجزائر في مختلف مراحل تلك الفترة، سوف يتم التعرض لمختلف جوانبه، وأهم أحداثه وحكامه، من

خلال مجموعة من المقالات، نستهلها بالوقوف عند ظروف انضواء الجزائر تحت راية الخلافة العثمانية، في محاولة للإحاطة قدر الإمكان بالموضوع، باستعراض أهم التطورات التي عرفها المكان والزمان، وكذا مختلف الجهود التي بذلت خدمة للجزائر، والخلافة العثمانية، والأمة الإسلامية.

وأصبحت بذلك تشكل وبكل تأكيد طرفا هاما في المنظومة الأمنية الإسلامية بمنطقة البحر المتوسط، ولاسيما الغربي منه، كما كانت تعمل على تغطية الأحداث والمستجدات في بلاد المغرب، الذي عرف في تلك المرحلة مخاضا عسيرا ولدت على إثره كيانات سياسية جديدة في المنطقة، سواء بتونس وليبيا في الجهة الشرقية للجزائر، أو بالمغرب الأقصى في الجهة الغربية لها.

لذلك كان من الضروري على الجزائر أن تتكيف مع المستجدات، وتساير الأحداث والتطورات، وتكون على اطلاع دائم وسريع بكل المتغيرات، التي كانت كثيرا ما تكون سببا إما في تحقيق الانتصارات المجيدة، التي يفتخر بها أبناء المنطقة في سائر العصور، أو تتلقى الهزائم والانكسارات المريرة، التي يجتر أولئك الأبناء نفسهم مآسيها لأعوام مديدة.

لقد كان عهد حكم البيلربايات (1519م – 1587م)، وخاصة عهد خير الدين برابروس (1519م-1546م)، الذي يمثل فاتحة المرحلة الأولى للنفوذ العثماني بالجزائر أهمية جد خطيرة، اذ كان يرتكز عليه كل مستقبل المنطقة برمتها، حيث كان الميلاد عسير لاسيما في تلك الظروف المحلية والدولية، التي كانت محفوفة بالمخاطر والمصاعب والتحديات، حيث استطاعت الجزائر فيها الوقوف الند للند في وجه أكبر قوة استعمارية في المنطقة آنذاك، والمتمثلة في الإمبراطورية الاسبانية.

ولمحاولة الوقوف عند حقيقة تطور الوضع السياسي في تلك الفترة بالجزائر من جهة، وفي المجال الذي كان يحيط بها من جهة أخرى، سوف يتم التعرض لمختلف جوانبه، وأهم أحداثه وعملياته، من خلال هذا المقال، في محاولة للإحاطة قدر الإمكان بالموضوع، عن طريق استعراض أهم التطورات التي عرفها، وكذا مختلف الصفحات التي طواها.

- **ظروف وصول العثمانيين إلى الجزائر:**

لقد كان القرن السادس عشر بحق قرن انبعاث الدولة الجزائرية القوية الموحدة، حيث استطاع أبناؤها بالتعاون مع العثمانيين (خليل اينالجيك،2002) ، أن يؤسسوا قوة سياسية وعسكرية واقتصادية هامة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وقفت الند للند في وجه كل الأطماع الأوربية، سواءً على أرضها أو في باقي الدول الإسلامية المجاورة، بل فرضت نظامها وهيمنتها وسياستها على المنطقة لأكثر من ثلاثة قرون من الزمن، فكانت بحق صخرة تحطمت عليها كل الطموحات التوسعية الأوروبية على بلاد المغرب، خاصة الاسبانية منها التي فشلت في نيل مرادها، واستكمال مشاريعها التوسعية في المنطقة، بل كانت سببا في تقلص نفوذها عن عدة مناطق بأوروبا، نتيجة استنزاف قوتها في حوض البحر المتوسط، أمام الاسطول الجزائري الذي أرهقها وألحق بها خسائر كبيرة، كما استولى على كمية كبيرة من مغانمها التي كانت ترد من العالم الجديد (أمريكا) بعد احتلال أجزاء واسعة منه(المدني،1968،ص227)

وقد ارتبطت الجزائر بصفة رسمية مع الدولة العثمانية منذ نهاية العقد الثاني من القرن السادس عشر ميلادي، وبالضبط منذ نهاية عام 1519م(التميمي،1976،ص118) إلى غاية عام 1830م تاريخ بداية الاحتلال الفرنسي لها.

وكان الوجود العثماني في الجزائر كرد فعل طبيعي في مواجهة التحرشات الصليبية، التي شنها البرتغاليون والاسبان ضد المسلمين في شمال إفريقيا، خاصة بعد سقوط غرناطة، وكذا ضد تحرشاتهم وهجماتهم واحتلالهم، الذي استهدف المدن الساحلية لبلدان المغرب عامة، والمغرب الأوسط خاصة (الجزائرية حاليا)، وخاصة من مطلع القرن السادس عشر الميلادي من طرف الاسبان، الذين جندوا في سبيل ذلك المال والرجال، بعد حصولهم على تقرير من أحد جواسيسهم بالمنطقة، يحثهم على غزو بلاد المغرب واحتلالها، حيث ذكر فيه: "أن كامل بلاد شمال إفريقيا يجتازها فترة انهيار نفسي يظهر معها أن الله قد أراد أن يجعل هذا البلد ملكا لصاحبي الجلالة المسيحية"(المدني،1968،ص68). ومع ذلك فقد تردد الملك

فيردينانـد، والملكـة ايـزابيلا(البعلبكـي،1992، ص80) في الإقـدام علـى مهاجمـة الـبلاد ولم يتحقـق المشروع إلا بعـد مـوت الملكـة إيزابيلا عـام 1504م، وحـرص الاسبان علـى تنفيـذ وصاياها، التي تركتها وألحت فيها على المضي في تحقيق مشاريعها التوسعية الصليبية الانتقامية في بلاد المغرب، ولاسيما المغرب الأوسط منه (الريسوني،2006،ص19)

ولقد شُرع في القيام بالحملة الاسبانية على مملكة تلمسان فعليا، بتجهيز الملك فرديناند لحملة عسكرية ضد السواحل الجزائرية، اسند قيادتها إلى دون ديبغو فرنانديز Don Diego Fernandez(sanchez,1991, P 201 -222) ، وذلك في اتجاه ميناء مرسى الكبير(كربخال،1984،ص:327-328) ، حيث وصلته يوم 11 سبتمبر عام 1505م ونجحت في دخوله(المدني،1968،ص 96-98).

ثم جاء دور مدينة وهران(بوعزيز،1985،ص 25-31) في منتصف شهر ماي من عام 1509م. ونفس المصير كان ينتظر المدن الجزائرية الساحلية الأخرى، حيث تعرضت تباعًا لهجمات إسبانية، فبعد وهران جاء الدور على مدينة بجاية في مطلع عام 1510م، ثم أقدم الاسبان على احتلال المواقع الأخرى في الشرق كطرابلس، وجزيرة جربة، في الحوض الشرقي من البحر المتوسط، أما في الحوض الغربي منه فاحتلوا عنابة، وأعظم منها العاصمة الحفصية تونس، وغيرها، وأقامت في بعضها حاميات قوية، كحلق الوادي. مستغلة ما آل إليه الحفصيون في الشرق الجزائري وتونس وطرابلس من وهن وضعف وأخذت تراقب الوضع عن كثب، وتتحكم في تطور الأوضاع، غير أنها عجزت في الوصول إلى المناطق الداخلية، أو بالأحرى أحجمت عن ذلك لنقص المعلومات الاستخباراتية وخوفها من المغامرة، وكذلك لقوة مقاومة القبائل الداخلية(الغنيمي،1994،ص 188-189).

وأمام بشاعة المجازر التي كان يرتكبها الاسبان في المدن المحتلة، فقد سارعت باقي المدن الساحلية خاصة بالإذعان للإسبان دون قتال، بل أقدمت على تقديم فروض الولاء والطاعة، وعقد المعاهدات الخضوع. وفي ذلك الإطار سارع أعيان مدينة الجزائر إلى إرسال وفد تحت قيادة شيخهم سالم التومي إلى الاسبان في بجاية بعد أيام من احتلالها، وذلك من أجل

الاذعان الطوعي، والمصحوب بتنازلات لم يكن الاسبان يحلمون بها، والتي منها السماح بإقامة حصن إسباني على أكبر الجزر الصخرية المقابلة لميناء المدينة (البينيون)، والذي جعل مدينة الجزائر تحت رحمة الاسبان مدة ثماني عشرة سنة، أي منذ عام 1511م وإلى غاية نجاح خير الدين في تدميره عام 1529م(المدني،1968،ص 127-128)

وقد كان الأخوة بربروس، عروج، وخير الدين، وإسحاق من أوائل العثمانيين الذين استقروا على أرض الجزائر، وأثروا في مسار الأحداث بها وفي المنطقة الغربية للبحر المتوسط. ولذلك فمن المهم التوسع قليلا في الوقوف عند جهود عروج المؤسس الأول لنواة الحكم العثماني في الجزائر.

وقد اتخذ الإخوة في بداية أمرهم من الموانئ التونسية منطلقا لغزواتهم، بعد أن أذن لهم السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد المتوكل، باستعمالها خاصة موانئ جزيرة جربة الموجودة في الجنوب التونسي، مقابل دفع الخمس من الغنائم وشروط أخرى، فذاع صيتهم، وانتشرت أخبار بطولاتهم في الغزو البحري، الذي طال كل الموانئ والمدن الساحلية الأوروبية المطلة على البحر المتوسط، وخاصة الاسبانية منها، بقصد الجهاد، وإنقاذ أهل الأندلس من جحيم الاضطهاد، والسياسة الاسبانية المعادية للإسلام والمسلمين. كما كانت السفن والمراكب الأوروبية هدفا لهجماتهم التي كانت ترعب الأعداء من جهة، وتزرع الأمل لدى المسلمين المستضعفين الذين كانوا يئنون تحت سيطرة الاسبان وتهديدهم، مما شجع المجاهدين الجزائريين على طلب النصرة منهم والاستنجاد بهم ضد العدو الاسباني(بوعزيز،1985،ص35،33).

فما كان من عروج وجماعته إلا الاستجابة، وتلبية نداء الواجب ونداء الجهاد، وقدموا بأسطولهم إلى السواحل الجزائرية، ثم انطلقوا في مهاجمة القوات الأوربية والاسبانية المرابطة أو المحتلة للمدن الجزائرية، ومحاولة تحرير ما وقع في أيديهم من قبل. وقاموا في هذا الإطار بتحرير العديد منها، ثم شرعوا في توسيع نفوذ العثمانيين بالجزائر، وربط الحكم الذي سوف يستمر لأكثر من ثلاثة قرون كما سبقت الإشارة إليه.

ولقد شُرع في ذلك بعد اتصال أمير قسنطينة أبي زكريا الحفصي، وبعض أعيان ومشايخ بجاية بالرايس عروج ومرافقيه من المجاهدين في تونس عام 1512م، والإلحاح في دعوتهم لإنقاذ مدينتهم من الاحتلال الاسباني، واطلاعهم على جميع الأوضاع والإمكانيات المتوفرة، حيث توجه عروج وجنده عام 1513م إلى بجاية غير أن جواسيس الاسبان كانوا أسرع منه، واستطاعوا نقل الاخبار إلى اسبانيا، التي سبقته بإرسال خمس عشرة سفينة لنجدة المدينة، فعجز عروج عن تحقيق مراده أمامها نظرا للفرق الواضح في العدد والعدة، وكذلك لحصانة المدينة وتعزيزاتها(المدني،1968،ص164،163).

ورغم هبة قبائل المناطق الجبلية المجاورة لنصرته بعد الاتصالات والتحضيرات التي كانت بينهم، إلا أن محاولته لم تحقق نتيجة تذكر ما عدا اغراقه لسفينة اسبانية، واستيلاءه على أخرى، ومحاولته استطلاع الوضع عن كثب براً من أجل رسم خطة محكمة للهجوم على المدينة بالتنسيق مع القبائل المحلية، فأصيب وانسحب إلى تونس أين قطعت ذراعه بأمر من الأطباء، غير أن الاسبان استغلوا هذه الفرصة من أجل تقوية التحصينات والاستعداد للمواجهة من جديد. أما مراجع أخرى فتذكر أن محاولة عروج الاولى لتحرير مدينة بجاية كانت عام 1512م، أي في نفس العام الذي اتصل فيه أهل بجاية به.(شارل فيرو،2010،ص95-96)

حينها أيقن عروج أن وجوده بجربة بعيد نوعا ما عن مدن المغرب الأوسط، وأنه ومن أجل الانطلاق إلى تحرير بجاية والمدن الأخرى يجب أن يكون من مدينة قريبة، فكان الاختيار على مدينة جيجل، أول قاعدة لهم في الجزائر، ابتداءً من عام 1514م، بعد تخليصها من سيطرة الحامية العسكرية المتواجدة بها والتي تعمل لصالح مدينة جنوة، وذلك بعد تخابر واتصالات مع سكانها الذين تم طردهم منها. وبعد تحريرها انتقل في حملة ثانية لتحرير مدينة بجاية، إلا أنه فشل من جديد في دخولها بسبب استماتة القوات الاسبانية المرابطة فيها، ونقص البارود، لرفض سلطان تونس إمداده به، وهناك من يذكر أيضا وجود حملة ثالثة، غير أنها كانت كلها فاشلة.

كما يذكر أن عروج في تلك الأثناء قد شرع في إقامة اتصالات مع السلطان العثماني سليم الأول، بإرسال الهدايا وتجديد الولاء والطاعة له، واستجداء الرضا والمباركة له ولنشاطه الجهادي في بلاد المغرب، فكان له ذلك حيث باركه السلطان وبارك نشاطه وأمده بسفينتين ودعمه بالرضا والتوصية عليه لدى سلطان تونس.

ثم جاء دور مدينة الجزائر ثاني المدن التي خضعت للإخوة بربروسة، حيث تلقى عروج دعوة من أهالي المدينة وأميرهم سالم التومي في عام 1516م، لتخليصهم من الحامية الإسبانية الموجودة بحصن البينيون، التي كانت تضايقهم، وتشل حركتهم، وتحول دون ممارستهم للغزو البحري، فاستجاب لطلبهم بعدما أمدوه بالمعلومات اللازمة عن الحامية وتحصنها، ودخل المدينة بعد أن قدم إليها براً، واستقبل بجفاوة من طرف سكانها الذين بايعوه على الجهاد، وشرع في مهاجمة الحصن الإسباني، بعد أن استولى على بلدة شرشال المجاورة، ولكن مدفعيته لم تستطع التأثير على الحصن القوى مع أنه لم يكن يبعد عن المدينة بأكثر من 100م، وذلك لصغر حجمها وقصر مداها، وفي تلك الأثناء كان سالم التومي حاكم المدينة السابق، يتصل سراً بالإسبان عن طريق وسطاء، غير أن عروج اكتشف ذلك من خلال جواسيسه، ولاستباق الوضع والإمساك بزمام الأمر، ولإحباط المكيدة فقد أعدم سالم التومي، الذي فر ابنه إلى الاسبان قصد الاحتماء، وطلب النجدة منهم(العسلي،1980،ص93-95).

كما استطاع عروج من إحباط المكيدة، التي دبرت من طرف بعض الأعيان، وعناصر من قبيلة سالم التومي المتذمرة من مقتل شيخهم، بالتنسيق مع الحاكم الاسباني لحصن البينيون، والمتمثلة في التخطيط لإحراق سفن عروج التي كانت على الشاطئ، وحين خروجه وجنده وانشغالهم بإخماد النار التي تشب بها، يقوم المتآمرون بإغلاق أبواب مدينة الجزائر عليهم ويمنعونهم من الدخول، فيسهل على الأعداء المتحالفين القضاء عليهم بكل سهولة، غير أن عروج تفطن للحيلة والمكيدة بعد اطلاعه من طرف جواسيسه على كل تفاصيل المؤامرة، التي كانت شديدة الخطورة ليس على عروج وجنده فحسب، بل على تطور

الأحداث واتجاه مسارها في الجزائر والمنطقة برمتها. واستطاع في ظرف قياسي من تدارك الوضع بحزم وشدة، حيث انتقم شر انتقام من جميع المتآمرين وأعوانهم(Haëdo,1881. P 22 – 24).

لقد رأى الاسبان في تعاظم قوة عروج وتوسعاته في المنطقة خطراً محدقا بمصالحهم، حيث أن التقارير الاستخباراتية التي كانت ترد من شبكة عملائهم وأعوانهم وجواسيسهم، التي زرعوها بالمدينة والحصن تنذر كلها بخطورة الوضع، وتراقب عن كثب التحصينات التي شرع عروج في احداثها بالمدينة، خاصة الابراج والمدافع ...الخ.

فتحركوا بعد أن وصلتهم الاخبار اللازمة، وجهزوا حملة ضخمة في نفس السنة أي عام 1516م للقضاء على خطر عروج قبل استفحاله، وكان ذلك بقيادة دييغو دوفيرا القائد الاسباني المحنك، لكنها باءت بالفشل أمام خطط عروج الدفاعية والهجومية، والتي مكنته من القضاء على 3000 جندي ممن نزلوا إلى الأرض، وأسر 400 منهم. كما ساعدته العاصفة البحرية التي هبت على المدينة في تلك الآونة، فقضت على معظم قطع الأسطول بمن فيها غرقا في البحر(بوعزيز،1985،ص36-37).

لقد ساعد ذلك الانتصار الذي حققه عروج وجماعته، بالتعاون أيضا مع سكان المدينة والمنطقة المجاورة، على استقرار الأمر لحاكم الجزائر الجديد، فشرعوا معه في تحصين مدينة الجزائر وتقوية دفاعاتها استعداداً للوقوف ضد أي حملة أخرى يقدم عليها الاسبان، كما عملوا على مد نفوذهم إلى مدن أخرى ساحلية وداخلية، في مقاطعة الجزائر وخارجها، كدلس[1]، التي توجد على الساحل في اتجاه الشرق، والتي كانت تمثل ميناء بحري جد هام في الملاحة، ومدينة المدية[2] إلى الجنوب من مدينة الجزائر، ومدينة مليانة[3] في اتجاه الغرب، وغيرها من المناطق والمدن. ثم توجهت أنظار عروج إلى الغرب الجزائري، الذي كانت تصله من أعيانه دعوات للقضاء على الحكام الزيانيين الموالين للاسبان، كسلطان مدينة تنس، وسلطان مدينة تلمسان، التي وصلته منهم أخبار ومعلومات استخباراتية تثبت تآمرهما مع الاسبان(العسلي،1980،ص 98-100).

وقد تمكن من الانتصار على قوات سلطان تنس في صيف 1517م، فدخل عروج المدينة، ثم تقدم إلى تلمسان ودخلها في سبتمبر 1517م، بعد سحقه لمقاومة أبي حمو الثالث الزياني الموالي للإسبان، وكان قد أقام وهو في طريقه إلى تلمسان حامية في قلعة بني راشد، التي تتوسط الطريق بين تلمسان ومدينة الجزائر لتأمين خط الرجعة إلى هذه الأخيرة ووصول الإمدادات إليه منها أو من الجزائر، وأسند قيادتها إلى أخيه إسحاق. لكن الإسبان وبتواطؤ مع الخونة والجواسيس، وعلى رأسهم السلطان أبو حمو الثالث قضوا عليها وقتلوا إسحاق، ثم حاصروا عروج وجنده في تلمسان، وبعد محاولته اختراق الحصار والخروج منه تم القضاء عليه في ماي 1518م بمنطقة بني يزناسن. وأعادوا أبا حمو الثالث إلى الحكم بعد قبوله دفع ضريبة سنوية لهم(المدني،1968،ص 187-192).

- **بداية العهد العثماني في الجزائر:**

بعد استشهاد عروج بايع أهل مدينة الجزائر خير الدين خلفا له، فشرع فورا في الاستعداد لمواجهة حملة إسبانية متوقعة، جاءته بأخبارها عيونه، وكذا مراسلات الملك الاسباني شارل الخامس[4]، الذي هدده وطلب منه الرحيل، فأبى ورد عليه برد شديد ومهين، وضاعف من جهوده وتحصيناته، فثارت ثائرة ملك الاسبان وأرسل حملة كبيرة إلى مدينة الجزائر، تحركت في صيف عام 1519م، بقيادة نائب الملك بصقلية، هيجو دومنكاد Hugo de Moncade للقضاء على مدينة الجزائر، الذي أوعز إلى سلطان تلمسان "المتعاون" للتحرك بقواته لدعمه، وذلك حسب الاتفاق الذي كان بينهم أثناء عملية التحضير، غير أن السلطان أبا حمو الثالث قضى نحبه في نفس السنة، وخلفه أخوه عبد الله الثاني الذي لم يكن متحمساً للفكرة كأخيه السابق، وآثر التريث والتروي قبل التدخل، وكذلك أخوه المسعود الذي تنافس معه على الحكم، ولكن الجزائريين بقيادة خير الدين تمكنوا من القضاء على الفتن التي دبت في كل من مدينة تنس ومليانة، اثر استشهاد عروج، بتحريض من سلطان تلمسان أبي حمو الثالث قبل وفاته، وأعدوا العدة الكاملة للتصدي إلى الحملة الإسبانية، التي وصلت إلى السواحل الجزائرية في شهر أوت 1519م، فتصدى لها خير الدين وجيشه من

الأتراك وأهل الجزائر، وألحقوا بها خسائر جسيمة. كما زادت العاصفة البحرية التي هبت من خسائرهم.

كما أعلن خير الدين إثر هزيمته للإسبان عن رغبته في المغادرة نحو المشرق، كونه بقي وحيدا بعد استشهاد كل من أخويه عروج وإسحاق في تلمسان وسيدي راشد، غير أن أعيان الجزائر وعلماءها وعامتها تمسكوا به وألحوا عليه من أجل البقاء بينهم، فكان رده عليهم بأن أظهر لهم خطورة الوضع في الجزائر والمنطقة، أمام تربص الاسبان ورغبتهم في السيطرة على البلاد. وأشار عليهم بطلب الحماية والاستقواء بالخلافة العثمانية، لذلك نصح أبناء الجزائر بضرورة الاتصال بها والإلحاح في طلب الارتباط بها، والانضواء تحت رايتها كون سلطانها أصبح خليفة المسلمين وسيد أقوى دولة إسلامية، وذلك قصد الحصول على دعمها وتأييدها في مجابهة الطامعين في أرض الجزائر وخيراتها، وخاصة الاسبان، فاستجابوا لذلك وأرسلوا سفارة تحمل كتابا إلى السلطان العثماني سليم الأول[5]، يطلبون فيه الانضواء تحت راية الخلافة العثمانية. وكان ذلك أواخر شهر أكتوبر أو أوائل نوفمبر من عام 1519م. وقد رحب السلطان بالطلب وقبله، وبذلك غدت الجزائر تحت راية الخلافة العثمانية، وأصبح خير الدين حاكما لها تابعا للسلطان برتبة بيلرباي الجزائر(المدني،1968،ص 36-37)

- عهد البيلرباي خير الدين (حكمه المباشر) 1519م-1533م.

إن انضواء الجزائر تحت راية الخلافة العثمانية عام 1519م، وبلوغها مكانة خاصة لديها بمرور الزمن، اقلق كل دول المنطقة تقريبا. وبعدما كان الصراع جزائريا إسبانيا، أو جزائريا حفصيا أو مرينيا أو وطاسيا فيما بعد، توسع أكثر، إذ دخلت المنافسة دول أخرى، منها فرنسا، إنجلترا، البرتغال. كما سيتم ذكره. ولقد تميز خير الدين منذ توليه قيادة الجزائر بكفاءة عالية، وأبان على بعد نظر استراتيجي وعسكري لقائد محنك، تجلى فيما يلي:

1 - توقعه الحملة الاسبانية بفضل تقارير إستخبارات الجزائر الناشئة، وذلك بعد استشهاد عروج ومبايعة أهل مدينة الجزائر له خلفا لأخيه، فشرع فورا في الاستعداد لمواجهة حملة إسبانية متوقعة، جاءته بأخبارها عيونه، وكذا مراسلات الملك الاسباني شارل الخامس،

الذي هدده وطلب منه الرحيل، فأبى ورد عليه برد شديد ومهين، وضاعف من جهوده وتحصيناته، فثارت ثائرة ملك الاسبان وأرسل حملة كبيرة إلى مدينة الجزائر، تحركت في صيف عام 1519م، بقيادة نائب الملك بصقلية، هيجو دومنكاد Hugo de Moncade للقضاء على مدينة الجزائر، وأوعز قائد الحملة إلى سلطان تلمسان أبا حمو الثالث[6] "المتعاون" للتحرك بقواته لدعمه، وذلك حسب الاتفاق الذي كان بينهم أثناء عملية التحضير، غير أن السلطان قضى نحبه في نفس السنة، وخلفه أخوه عبد الله الثاني الذي لم يكن متحمساً للفكرة كأخيه السابق، وآثر التريث والتروي قبل التدخل، وكذلك أخوه المسعود الذي تنافس معه على الحكم، ولكن الجزائريين بقيادة خير الدين تمكنوا من القضاء على الفتن التي دبت في كل من مدينة تنس ومليانة، اثر استشهاد عروج، بتحريض من سلطان تلمسان أبي حمو الثالث قبل وفاته، وأعدوا العدة الكاملة للتصدي إلى الحملة الإسبانية، التي وصلت إلى السواحل الجزائرية في شهر أوت 1519م، فتصدى لها خير الدين وجيشه من العثمانيين وأهل الجزائر، وألحقوا بها خسائر جسيمة. كما زادت العاصفة البحرية التي هبت من خسائرهم.(المدني،1968،ص93-94)

2 - تقديره الصحيح لخطورة الوضع بعد النصر، إذ على إثر هزيمته للإسبان قرر خير الدين المغادرة نحو المشرق أو التظاهر بذلك، لكونه بقي وحيدا بعد استشهاد أخويه عروج في تلمسان، وإسحاق في سيدي راشد، غير أن أعيان الجزائر وعلماءها وعامتها تمسكوا به وألحوا عليه من أجل البقاء بينهم، فكان رده عليهم بأن أظهر لهم خطورة الوضع في الجزائر والمنطقة، أمام تربص الاسبان ورغبتهم في السيطرة على البلاد.

3 - طلبه الحماية والاستقواء بالدولة العثمانية، لذلك أشار على أبناء الجزائر بضرورة الاتصال بها والإلحاح في طلب الارتباط بها، والانضواء تحت رايتها كون سلطانها أصبح هو الخليفة وسيد أقوى دولة إسلامية، وذلك قصد الحصول على دعمها وتأييدها في مجابهة الطامعين في أرض الجزائر وخيراتها، وخاصة الاسبان، فاستجابوا لذلك وأرسلوا سفارة تحمل كتابا إلى السلطان العثماني سليم الأول، يطلبون فيه الانضواء تحت راية الخلافة العثمانية.

وكان ذلك أواخر شهر أكتوبر أو أوائل نوفمبر من عام 1519م. وقد رحب السلطان بالطلب وقبله، وبذلك غدت الجزائر تحت راية الخلافة العثمانية، وأصبح خير الدين حاكما لها تابعا للسلطان برتبة بيلرباي الجزائر.(دراج،2011،ص 229-231)

4 – تفويته الفرصة على المتآمرين على الجزائر، وفي هذا الإطار كان الاسبان من الأوائل الذين شرعوا في العمل لاستئصال ذلك التنظيم السياسي الجديد بالمنطقة، والمهدد لمصالحهم ومخططاتهم، وذلك عن طريق القيام باتصالات كثيفة مع عملائهم من أنظمة وجواسيس، والعمل على زعزعة استقراره، إما بشن حملات عسكرية بحرية ضده، أو بتشجيع المناوئين له بالتحريض والتآمر. كما اتصل سلطان تونس بسلطان تلمسان، للعمل على التخلص من الوجود العثماني بالمنطقة ، وسعى لزعزعة الدولة الناشئة بالتآمر عليها من الداخل مع ابن القاضي، مما أدى بهذا الأخير إلى التمرد على خير الدين، رغم أنه كان ممثله في الجهة الشرقية من الجزائر، بل وتعاون مع الحفصيين للإيقاع به، بعدما ضبط معهم الأمور في اتصالات جد سرية لم يتمكن حتى خير الدين من الاطلاع عليها، حتى أنه أشرف مع جيشه على الهلاك في معركة "فليسة أم الليل"، بعد أن مال ابن القاضي وجيشه إلى جانب الجيش الحفصي، فوجد خير الدين نفسه بين نار الحفصيين من جهة، ونار قوات ابن القاضي التي ضربته من الخلف، في حركة مباغتة لم يكن يحسب لها أي حساب، ولم يتمكن من النجاة رفقة قلة من جنوده إلا بأعجوبة، حيث انسحب منهزما إلى مدينة جيجل بدل مدينة الجزائر، وطلب من أسطوله أن يغادرها ويلحق به إلى ميناء مدينة جيجل، وذلك قصد استعادة الأنفاس والتفكير في استدراك الأمور التي انفلتت من يده، بينما واصل ابن القاضي زحفه نحو مدينة الجزائر التي دخلها واستقر بها من عام 1521م إلى غاية 1527م.(المدني،1968،ص 211-215)

واستطاع أثنائها الاتصال بالعديد من المشايخ بالجزائر، وتمكن أيضا من استمالة قارة حسن قائد القوات التي حركها خير الدين لحربه، والتي أزعجته في أول الأمر، حيث أغراه باقتسام حكم المناطق التي هي تحت يده.غير أن مصادر ومراجع أخرى تنفي تمرد أحمد ابن

القاضي الأب على خير الدين، بالاعتماد على مذكرات خير الدين نفسه، وترد الأمر إلى ابنه الذي يحمل نفس الاسم، والذي اتصل بالحفصيين وتعاون معهم بعد وفاة والده بشهرين.

إن الأحداث التي عصفت بخير الدين في تلك الفترة، جعلته يستوعب الدرس ويفهمه، ويستخلص منه العبر، فشرع بكل حزم وجد في العمل على استدراك الأوضاع في السنوات التي قضاها بجيجل. كما عمل على استغلال سلاح الاستخبارات والتجسس في التعامل مع ابن القاضي وغيره، وفي تحركاته ونشاطاته المستقبلية بالجزائر وما جاورها، حيث كشف من اتصالاته السرية مع بعض أعيان مدينة الجزائر، كما قام بربط اتصالات وعلاقات وطيدة مع أمير قلعة بني عباس، المنافس لابن القاضي، ومد نفوذه إلى بعض مدن الشرق الجزائري الحالي وعلى رأسها مدينة قسنطينة، وذلك للحد من نفوذ السلطان الحفصي والوقوف في وجهه، وفي نفس الإطار عمل على ترصد تحركات الاسبان، ومواصلة الغزو البحري، وإنقاذ أهل الأندلس الذين قام بنقل عدد كبير منهم إلى الموانئ الجزائرية، وعمل على تجديد العلاقة الودية مع السلطان الوطاسي بالمغرب الاقصى.(بن خروف، 1983،ص27)

كما جعل سكان مدينة الجزائر أمام اختبار عسير، حيث تركهم يتجرعون قسوة الحاكم الجديد وغلظته، لكي تكون عودته محمودة ومحل رجاء واستجداء. وأحاط ابن القاضي وحتى مجالسه بجواسيس ينقلون له كل كبيرة وصغيرة، وفي الوقت المناسب، لذلك عندما توفرت الظروف المناسبة، بعد وفاة السلطان الحفصي في تونس، زحف خير الدين وجنده على ابن القاضي براً، وهزمه في منطقة ثنية بني عيشة. مما أدى بأنصار هذا الأخير إلى اغتياله حقناً للدماء. وكان ذلك عام 1527م

وبعد عودة خير الدين إلى مدينة الجزائر أعاد النظر في الكثير من الأمور والقضايا، وعمل على توطيد أواصر ودعائم الحكم بها وفق سياسة جديدة، سوف يكون لها الأثر القوي في المحافظة عليها، واستمرار ازدهارها وريادتها بالمنطقة لمدة ثلاثة قرون، حيث أستهلها عام 1529م بدخول حصن الصخرة "البينيون"، الذي أقامه الاسبان في مدخل ميناء مدينة

الجزائر وجعلوا فيه حامية عسكرية كانت تراقب، وتتحكم في المدينة. وذلك بعد أن خف ضغط الوضع الداخلي بشكل نسبي على الجزائر، لزوال أحمد ابن القاضي أخطر مناوئ لهم بالمنطقة، والقضاء على قارة حسن المتمرد عليهم، وميل الشيخ الحسين ابن القاضي الذي تزعم المعارضة في بلاد القبائل بعد شقيقه الشيخ أحمد، إلى السلم مع حكام الجزائر عام 1529م، فتفرغ خير الدين للإسبان. حيث حاربهم وجواسيسهم بالحيلة والذكاء واستعمال المعلومات المغلوطة، قصد التمويه عليهم وخداعهم، وهذا ما ذكرته تقارير اسبانية، منه تقرير محفوظ بخزائن سيمانكاس باسبانيا اليوم، حول تفاصيل خطته التي أسقط بها حصن البينيون عام 1529م، والتي جاء فيها أنه أشاع خبر عزم خروجه على رأس أسطول من أجل غزو السواحل الاسبانية واتجه شمالا في حركة مناورة بحرية موفقة، في الوقت الذي كان فيه الحصن يتعرض لقصف مدفعي مكثف دك أسواره، وعند حلول الليل عاد بأسطوله تحت جنح الظلام وانزل القوات التي فاجأت الجنود الاسبان، وسقط الحصن في يده بأقل الخسائر، كما تم في تلك الأثناء الاستيلاء على سفينة حربية اسبانية قدمت لإنقاذ من كان فيه.(المدني،1968،ص215-216)

ليأمر خير الدين بعدها بدكه عن آخره حتى لا يبقى للإسبان مطمع في العودة إليه مرة أخرى، واستعملت أنقاضه في الربط بين الصخور أو الجزر الصغيرة باليابسة. وتشييد رصيف يمتد من المدينة إلى موقع الحصن. وهو المعروف برصيف خير الدين أو رصيف المول، انتهت الاشغال به عام 1532م، وبذلك أصبح لمدينة الجزائر ميناء يحمي السفن الراسية فيه من الأمواج. وأصبحت الجزائر قوة دولية يحسب لها ألف حساب، تمثل الدولة العثمانية العلية في منطقة شمال إفريقيا، والحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. واستعمل اسم الجزائر للتعبير به على إقليم المغرب الأوسط(فكاير،ص 32-33)

ومواصلة لجهوده في تقوية الدولة تأمينها من الخطر الاسباني فقد كان خير الدين يتابع تطور الاحداث في كل الحوض الغربي للبحر المتوسط، وفي ذلك الاطار علم بتعيين القائد الجنوي أندري دوريا على رأس الأسطول الاسباني، وشروعه في التحضيرات الحثيثة لضرب

الجزائر بعد أن أصبح في خدمة الإمبراطور الاسباني الذي كلفه بذلك، فاستعد خير الدين له، غير أن المعلومات التي توفرت لديه لم تكن دقيقة بالقدر الكافي، الذي يمكنه من تحديد وجهة الحملة التي كان يحضر لها بالضبط، لذلك بقي على أهبة الاستعداد في مدينة الجزائر يترقب تحركات الاسبان، ويستخبر عن وجهتهم لكي يتدخل في الوقت المناسب، فكانت وجهتها إلى مدينة شرشال عام 1531م، لعلم الاسبان عن طريق عيونهم بوجود حامية صغير بها رغم أهميتها الاستراتيجية، بحكم قربها من مدينة الجزائر، ووجودها في الطريق إلى وهران والمرسى الكبير، غير أن أهلها تصدوا للإسبان بشجاعة نادرة، وأنزلوا بهم هزيمة نكراء، وحين وصل خير الدين لنجدة المدينة وجد أن الامر قد حسم، وأن قائد الحملة على شرشال قد عجل بالانسحاب منها بأقصى سرعة، بعدما سمع بتحرك الاسطول الجزائري باتجاهه، لتجنب هزيمة أثقل.(المدني،1968،ص211-215)

هذا وقد عرفت المنطقة بداية حرب إشاعات، وتنافساً بين خير الدين وأندري دوريا، وذلك تأثرا بما كان يحدث في الجبهة الاوربية من صراع بين القوات العثمانية من جهة، وقوات أتباع الامبراطورية الاسبانية في المانيا، والنمسا والمجر من جهة أخرى، هذا بالإضافة إلى الصراع البحري الذي كان يعرفه الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط، بين الاسطول العثماني والأساطيل الأوروبية، مما دفع بالسلطان العثماني سليمان القانوني إلى استدعاء خير الدين على عجل من الجزائر إلى مقر عاصمة الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية اسطنبول قصد الاستعانة بخدماته الحربية هناك، غير أن الاستخبارات الاسبانية علمت بذلك، فحاولت قدر المستطاع افتعال العراقيل والمثبطات التي تحول دون سفره، حيث أوعزوا إلى السلطان الزياني بالثورة والتمرد على خير الدين، بعد أن كان مواليا له، فخرج إليه هذا الأخير وطوعه بعد هزيمته. كما قام القائد الجنوي أندري دوريا، بمحاولة إيهام وإغراء خير الدين بحركات بحرية وعسكرية في المنطقة لنفس السبب المذكور آنفا، غير أن هذا الأخير كان فطنا لهذه الاستراتيجية، التي تمكن من معرفة أهدافها ومراميها بفضل تقارير عيونه واستخباراته، وعن طريق استنطاق الأسرى الأوروبيين الذين وقعوا في يده بعد تصديه لهجوماتهم،

فاستغلهم لتمرير رسائل مغلوطة ومضللة لخصمه أندري دوريا، تفيد بإحجامه عن السفر عن طريق اصطناع إنزال أغراض سفره من سفنه، تحت أعين الأسرى الذين أطلق سراحهم، واستغل الوقت أيضا في إحكام السيطرة على الحركات التمردية بالداخل، وفي نجدة ونقل أهل الأندلس، الذين ضاقت بهم السبل بعد تضاعف الاضطهاد المسلط عليهم من طرف الاسبان.(التير،1989،ص98-101)

- **عهد البايلربايات خلفاء خير الدين أثناء حياته (1533م-1546م)**

بعد ذلك الصراع الذي خاضه خير الدين ضد الاسبان، خرج في رحلته صوب اسطنبول امتثالا لأمر السلطان، رفقة خيرة قادته وأعوانه ومساعديه، بعد أن اتخذ كل الاحتياطات من أجل تأمين مدينة الجزائر، وكذا باقي مدنها من أي خطر أو غزو. ولقد عرج في رحلته تلك على الجزر والسواحل الايطالية، معتمدا على المعلومات التي تحصل عليها من عيونه وجواسيسه، الذين كانوا يتابعون تحركات الاسبان وأعوانهم في المنطقة، خاصة قائدهم أندري دوريا، وذلك بعد وصول معلومات عن تحركاته في المنطقة، فاجتهد من أجل ملاقاته والاصطدام به، حيث كلف خمسا وعشرين سفينة بتتبعه، غير أنها لم تلحق به. وفي نفس الاطار أغار على العديد من تلك المناطق، حيث أسر وغنم مغانم كبيرة، أخذها معه إلى السلطان سليمان القانوني. .(التير،1989،ص98-101)

وللإشارة فقد استخلف خير الدين على الجزائر أخلص رجاله ومساعديه، المتمثل في محمد حسن آغا، بعد أن طلب منه السلطان أن يختار من يكون أكفأ لتلك المهمة الحساسة من رجاله، أو يخبره إن لم يجد من يصلُح، كي يبعث من عنده نائبا له، فكان حسن آغا خير خلف لخير سلف، إذ استطاع في ظروف جد حرجة من إرساء دعائم الحكم في الجزائر، وتمكن من الوقوف في وجه الإمبراطور الاسباني شارل الخامس نفسه وأسطوله العظيم، الذي زحف به على مدينة الجزائر عام 1541م، في جو استعراضي يوحي بتأكده من قهر قوة الجزائر واحتلالها. .(التير،1989،ص102)

ولقد تميز عهده اسباني عثماني على تونس حيث قام في ذلك الإطار الإمبراطور الاسباني شارل الخامس بإرسال بعثة اسبانية تجسسية تحت قيادة الجاسوس أوشود رسلا AUCHOUD RSLA، إلى تونس وكل أقاليمها عام 1534م، والتي كان على رأسها آذاك السلطان الحفصي الحسن بن محمد الخامس وكلفها بدراسة الأوضاع فيها، وتحضير الظروف الملائمة لتنظيم حملة عسكرية اسبانية تستهدف احتلالها في أقرب مناسبة، كي يتم تحقيق السبق وسد الطريق في وجه مشاريع الدولة العثمانية، التي كانت تستعد للتدخل بطلب من الأمير الحفصي الرشيد، وقد استطاعت هذه البعثة تقديم تقرير شامل عام 1534م، بينت فيه أن تونس مستعدة لفتح أبوابها أمام الاسبان، وأن الظروف متوفرة ومواتية من أجل احتلالها في أقرب الآجال، وذلك لما كانت عليه من تردي أحوال، وضعف واضطرابات داخلية.(الزبيري،ص30)

غير أن علم خير الدين المسبق بما كان يدبره الاسبان جعله يكون السباق في إقناع السلطان العثماني سليمان القانوني بضرورة ضم تونس إلى الدولة العثمانية، وتفويت الفرصة على الاسبان. كما أشار عليه باستعمال الأمير الرشيد شقيق السلطان الحفصي والمنافس له في ذلك المشروع، حتى يكسب مساعدة التونسيين ومؤازرتهم في تنفيذ الخطة. وبالفعل دخلت الجيوش العثمانية تونس يوم 18 جويلية 1534م. ولكن خير الدين لم ينصب الأمير الرشيد بدل السلطان الحسن الحفصي، الذي فر من المدينة إلى عرب البادية، بل أعلن إلحاق تونس بالدولة العثمانية، مما أثار تذمر التونسيين من العثمانيين لأخذهم تونس باسم السلطان العثماني سليمان القانوني، وأدى إلى عودة الحسن الحفصي إلى المدينة متخفيا، إلا أنه فشل أمام قوة خير الدين وبطشه بكل من يتجرأ على الثورة. فتحول الحسن الحفصي إلى طلب العون من الإمبراطور شارل الخامس، الذي رحب بالفكرة كونها تمثل هدفه المنشود، الذي كان يخطط ويحضر له كما سبقت الإشارة إليه، وحرك جيوشه التي كانت على أهبة الاستعداد، في العام الموالي نحو تونس التي دخلها يوم 18 أوت 1535م، واضطر خير الدين إلى الانسحاب من تونس قبل أن تحيق به هزيمة كاملة، وذلك بسبب امتناع الأهالي

عن دعمه، وتضافر جهود الأسرى الأوربيين في تونس مع الحملة الاسبانية بفتحهم أبواب مدينة لها من الأمام، ومهاجمتهم هم لقوات خير الدين من الخلف، بسبب كثرة أعدادهم نتيجة انتعاش الغزو البحري، ونشاط أسطول خير الدين أثناء رحلته من اسطنبول إلى تونس، حيث بلغ عددهم في تلك الأثناء بتونس أزيد من عشرين آلف أسير(الزبيري،ص 30-31)

لقد كان لتلك الهزيمة عدة انعكاسات بالجزائر في تلك الفترة، سواء على مستوى الولاءات، أو الاتصالات والمراقبة والاستخبارات، حيث زاد الاهتمام بترصد وتتبع تحركات كل الأطراف في المنطقة وخارجها، نظرا لحالة الترقب والاستعداد الذي دخل فيه كل طرف، سواء لتدعيم مكاسبه الحربية والجغرافية، أو لاسترداد مكانته وهيمنته على المنطقة، التي كانت مفتوحة لكل الاحتمالات والتكهنات، نظراً لعدم وجود حسم نهائي في موازين القوى بين الاسبان والعثمانيين في الجزائر، لأن خير الدين لم يتلق ضربة قاضية في تونس، بل إن انسحابه منها أخلط الأوراق الاسبانية، وحرمهم من الاستمتاع بنشوة النصر في تونس، وذلك بمهاجمته الاسبان في ماهون والبليار وغنم، واسر أكثر من ستة آلاف اسباني ساقهم إلى الجزائر، وبذلك ثأر لهزيمته في تونس قبل عودته إلى اسطنبول، وقلل من انتصار شارل الخامس عليه، ونغص على الاسبان فرحتهم.(بن خروف،1983،ص29)

كما سجل تأرجح مملكة تلمسان في موالاتها تارة لحكام الجزائر وأخرى للإسبان، وذلك نتيجة الصراعات بين الإخوة الأعداء، الذين فتحوا المجال واسعا للتدخلات الاسبانية والعثمانية وغيرها، فقد اصبحت مرتعا لتلاعب الجواسيس وعملاء الاسبان التابعين لحاكم وهران، الذين كانوا يرسمون خطط ومشاريع المناورات والتلاعب بأمراء بني زيان المتصارعين، على ملك متهاوٍ يزداد كل يوم تصدعا وضعفا، بسبب التطاحن والاقتتال الذي أفنى الرجال والمال، حتى أصبح الإخوة أعداء، يبحث كل واحد منهم عمن يدعمه من أجل الوصول إلى الحكم أو البقاء فيه، مقابل تنازلات يعجزون في أغلب الأحيان عن الوفاء والالتزام بها، وقد دخلت بعض قبائل المنطقة الممثلة في شيوخها ضعاف النفوس هذا المعترك، وعرضوا هم أيضا خدماتهم على الاسبان، مقابل مغانم زهيدة، فكانوا العيون والجواسيس الساهرة في سبيل

خدمة الاسبان، والسيوف والرماح الموجهة في صدور الإخوة خدمة لأعداء الدين والوطن.(المدني،1968،ص245)

كما قام الاسبان بمحاولة الاتصال بحسن آغا في عام 1540م، بواسطة حاكم وهران الكونت دالكوديت، لتسليم مدينة الجزائر دون مقاومة. غير أن حسن آغا كان معروفاً بالفطنة والحنكة وثبات الرأي، وحسن السياسة والتدبير، واوهم الاسبان بقبوله للعروض المقدمة، ودفعهم إلى ارتكاب أخطاء تكتيكية وعسكرية خطيرة جدا، وغير محسوبة العواقب، والمتمثلة في خروج حملة عسكرية بحرية كبيرة جدا نحو مدينة الجزائر، مع بداية أخطر فترة في السنة للملاحة في البحر المتوسط، والمتمثلة في شهر أكتوبر عام 1541م، المعروف عن هذا الشهر تقلباته المفاجئة وعواصفه البحرية الهوجاء حتى اليوم، في الوقت الذي كان قد اتخذ كل التدابير والاحتياطات لتجنب المفاجأة، حيث وضع على قمم جبل بوزريعة الذي يقع في الغرب والجنوب الغربي لمدينة الجزائر، والمشرف على الواجهة البحرية للمدينة وما يحيط بها، عيوناً وجواسيس يرقبون وصول حملة شارل الخامس من بعيد لعلوه وسهولة المراقبة منه، وبالفعل وصلته أخبار قدوم الحملة في حينها من تلك العيون، مما سمح له باتخاذ التدابير اللازمة في الوقت المناسب، وتوزيع الجنود على مواقعهم استعدادا للمواجهة والدفاع على المدينة. كما وصلت القبائل الجزائرية إلى المرتفعات المجاورة للمدينة في نفس اليوم، وذلك دليل آخر على التنسيق والاستعدادات الحثيثة التي كان حسن آغا قد باشرها في الوقت السابق لقدوم الحملة، مع قبائل المنطقة سواء القريب منها أو البعيد(شوفالييه،ص110)

وبعد نزول الحملة إلى البر أرسل الإمبراطور شارل الخامس رسالة إلى حسن آغا يطلب منه تسليم المدينة مقابل وعود مغرية، وإن أبى سوف يحل به ما حل بسيده خير الدين في تونس عام 1535م، غير أن هذا الأخير رد عليه بكل كبرياء وعزة، بأن الأخذ بنصائح العدو حماقة كبرى، وهو يريد بعمله الدفاعي هذا أن يحقق المكانة المرموقة والشهرة الأبدية.

غير أنه فشل وهزمت حملته شر هزيمة حيث ولى مدبرا فارا إلى بجاية خاصة بعد اشتداد العواصف وغرق العديد من سفن أسطوله، وهلاك عدد هائل من جنده، وامام دهشة الاسبان حاولوا معرفة كل التفاصيل التي أدت إلى هزيمتهم بذلك الشكل، ولاسيما أن الحملة كانت تحت قيادة الإمبراطور شارل الخامس نفسه، رفقة مجموعة كبيرة من ملوك وقادة أوروبا، الأمر الذي أعتبر إهانة وإذلالاً لمجد الإمبراطورية الاسبانية التي كانت تتربع على الريادة وتفتخر بذلك.(belhamissi,1999, p.41)

وبعد ذلك النجاح الباهر الذي حققه حسن آغا على حملة شارل الخامس، وأعداء الجزائر والدولة العثمانية، تم ترقيته إلى رتبة باشا من طرف السلطان سليمان القانوني، اعترافا له بالدور الكبير الذي لعبه في هزيمة الحملة الاسبانية على الجزائر، وفي إذلال الإمبراطور شارل الخامس، وفي إعلاء راية الإسلام والخلافة العثمانية. ولقد كان ذلك التشجيع دافعا قويا لحسن آغا من أجل مواصلة العمل على توطيد أركان الدولة الجزائرية، التي أصبحت بفضل انتصاراته يحسب لها ألف حساب، حيث عمل عام 1542م على تأديب كل من حاول التعامل والتآمر مع الاسبان أيام حملة شارل الخامس، وكان على رأسهم ابن القاضي حاكم إمارة كوكو، الذي أعلن ندمه وأعرب عن ولائه عن طريق تقديم الهدايا، ودفع الضرائب، ورهن ابنه لدى حسن آغا الذي قبل منه ذلك. وواصل حملته التي شملت كل المناطق الشرقية، ثم تحول إلى إخضاع المناطق الغربية، وبناءً على المعلومات الاستخباراتية التي تحصل عليها من طرف رجل إسباني، كان قد انضم إلى صفوف الجزائريين واعتنق الدين الإسلامي، عن المرسى الكبير وتحصيناته، فقد عزم على تحريره مستغلا الثغرات الدفاعية التي أطلعه عليها، فأرسل قوة بحرية إليه قصد تحقيق المفاجأة، غير أنه فشل، وتحول إلى مملكة تلمسان لتأديب سلطانها محمد بن عبد الله الزياني، الذي كان متأرجحاً في الولاء والتمرد بين الاسبان وحكام الجزائر، غير أن هذا الأخير استدرك الوضع مسبقاً، وأعلن الندم على ما بدر منه وقام باسترضاء حسن آغا، ووعده بقطع التموين عن الاسبان في مدينة وهران.(بن خروف،1983،ص35)

ورغم محاولة حاكم وهران الاسباني الكونت دالكوديت السعي لنصرة أخ السلطان المدعو عبد الله الزياني، إلا أنه فشل أول الأمر، لكنه أصر على ذلك عام 1543م حيث دخل تلمسان ونهبها، وولى حليفه الحكم، إلا أنه وقع في كماشة، حيث وصلته أخبار لا تسر من جواسيسه في المنطقة، تفيد بالانتشار الكبير لقوات السلطان المخلوع، وكذا القبائل المحلية الناقمة عليه، ورغم اتخاذه لكل الاجراءات الوقائية والاحتياطات الضرورية، إلا أنه وجد صعوبة كبيرة في العودة إلى وهران أمام ضربات القبائل المحلية، التي كبدته خسائر كبيرة في العدد والعدة، ولم يسلم منها حتى وصوله إلى الواد المالح على مشارف المدينة.(De Grammont,1881. P 70)

وبعدها حاول دالكوديت أيضا احتلال مدينة مستغانم عام 1547م، غير أنه انهزم هذه المرة وولى الادبار يجر العار والمذلة، بعد أن وقفت حاميتها في وجهه، ولاقى من القبائل المحلية المقاومة المستميتة، التي ضربت بها الامثال في الشجاعة والقتال، حتى اصبح طريق عودته من مستغانم إلى وهران مقبرة للجنود الاسبان، التي تناثرت جثثهم وأشلاؤهم في كل مكان، ومنيت حملته تلك بهزيمة نكراء.

كما سجل في تلك المرحلة مراقبة البرتغاليين للتقارب الجزائري السعدي، ولكن بحذر شديد وبسرية تامة، ايام الصراع على الحكم بين الاخوين السلطان أحمد الأعرج، وولي عهده أخيه الأصغر، ورفيق دربه، وساعده الايمن في الجهاد ومحاربة البرتغاليين، وفي تأسيس الدولة السعدية منذ الايام الاولى لنشأتها وبنائها، والمعروف بمحمد الشيخ السعدي، بل ان البرتغاليين شرعوا في اعداد ووضع خططهم على ضوء ما يصلهم من أخبار ومستجدات في ذلك الموضوع، خاصة بعد تمكن السعديين من تحرير مدينة أغادير بجنوب المغرب عام 1541م، ونجاح الجزائريين في التصدي لحملة إمبراطور إسبانيا شارل الخامس في نفس العام، حيث عملوا على تغيير سياستهم في المنطقة، ومحاولة احتواء الوضع والتكيف مع المستجدات، وذلك بالتحرك لأجل التقرب من السعديين، والسعي إلى عقد اتفاق سلام معهم لأطول مدة ممكنة، كاتفاق عام 1547م الذي عقد لمدة ثلاث سنوات، للحيلولة

دون حدوث تحالف جزائري سعدي ضدهم أو ضد الاسبان.وعرفت هذه المرحلة أي منتصف العقد الخامس من القرن السادس عشر وفاة حسن آغا عام 1544م، فاجتمع الديوان وعين بدله الحاج بكير ريثما يعين السلطان من يخلفه، فكان حسن بن خير الدين، الذي قدم في نفس السنة إلى قيادة الجزائر(بن خروف،1983،ص229)

وقد فجعت الجزائر والدولة العثمانية في تلك المرحلة أيضا، بوفاة خير الدين بربروس بعد مسيرة مشرفة، سواء على رأس الجزائر أو على رأس البحرية العثمانية، حيث قضى أكثر من ثلاثة عقود في مقارعة البحار وأنوائها، والاسبان وحلفائهم، والخونة ودسائسهم، والجواسيس وتغلغلهم، فكان القائد المحنك، والحاكم المتبصر، والمجاهد المقتدر، فنال إعجاب وتقدير الاصدقاء والأعداء، فكان مهاب الجانب، عظيم الشأن، زرع الرعب في أوربا، والأمل في أبناء الجزائر التي تدين له بالكثير، ويدين هو أيضا لها ولأبنائها بالنصرة والجلد والمكابدة والمحبة، وكتب اسمه في تاريخها بأحرف من ذهب، واستحق بكل جدارة مرتبة الابن البار، وكانت وفاته رحمه الله في اسطنبول يوم 04 جويلية عام 1546م.(التير،ص122)

الخاتمة:

مما تقدم يمكن القول أن الجزائر، في عهد البايلرباي خير الدين، حققت نتائج جد إيجابية، من خلال وقوفها في وجه الحملات الاسبانية، بل أكثر من ذلك لأنها استطاعت في الكثير من المرات التفوق عليها، وإحراجها والتفوق عليها حتى مع إمبراطورها شارل الخامس شخصيا في إحدى حملاتها، والذي تبين له في الكثير من المواقف، أنه كان ضحية خدعة استخباراتية محكمة الحياكة من الجزائريين، سواء في قضية التفاوض مع خير الدين وحسن أغا، أو في قضية تسليم مدينة الجزائر من طرف حسن أغا له، إثر قيادته لحملته عليها عام 1541م، هذا إلى جانب تمكنها إلى حد كبير من تحقيق أهدافها ومراميها في جمع أكبر قدر من المعلومات على الأعداء، والخصوم.

كما استطاعت تحقيق نتائج جد ايجابية والمتمثلة في استتباب الوضع الداخلي للجزائر، لاسيما فيما يخص القضاء على الثورات الداخلية والتمردات، والميل في الاحلاف والمواقف،

التي ظهرت خاصة بعد هزيمة خير الدين في تونس عام 1535م، وما ترتب عنه من تمرد وتحول في الولاء بالنسبة لبعض القوى المحلية والقبائل، التي تفرغ حسن أغا لتطويعها، وردها إلى جادة الصواب عقب هزيمة الامبراطور الاسباني شارل الخامس عام 1541م

هذا وتجدر الاشارة أيضا إلى دخول المملكة البرتغالية على الخط في تلك الفترة، وذلك لاهتمامها المتواصل بتطور العلاقات الجزائرية السعدية، في العقد الرابع وما بعده من القرن السادس عشر الميلادي، بقصد العمل على افشال أي تقارب أو تحالف مهما كان شكله، لأنه يهدد التواجد البرتغالي على أرض المغرب، لاسيما بعد تحرير مدينة أغادير عام 1541م.

المراجع:

-خليل اينالجيك: **تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار**، دار المدار الاسلامي، ترجمة محمد.م. الارناؤوط، الطبعة الاولى، بيروت، لبنان، 2002.

-أحمد توفيق المدني: **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492 – 1792**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص 227.

-عبد الجليل التميمي: **أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519 م**، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 06، جويلية 1976، ص118.

-منير البعلبكي: **معجم أعلام المورد**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1992م، ص 80.

-علي الغالي الريسوني: **مغرب لا يقهر ولكن...**، مطابع الشويخ، ط الثانية، تيطوان، المملكة المغربية، 2006، ص 19.

-عبد القادر فكاير: **آثار الاحتلال الاسباني على الجزائر خلال القرون 10-12هـ/16-18م. دراسة تناولت الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمخلفات العمرانية**، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ، الجزائر، ص 23 -24.

-عبد الفتاح مقلد الغنيمي: **موسوعة المغرب العربي**، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، المجلد الثالث، الجزء الخامس، القاهرة، مصر، 1994، ص 188 - 189.

-يحي بوعزيز: **علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500-1830**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985م، ص 33-35.

-شارل فيرو: **تاريخ جيجلي**، ترجمة عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص95-96.

-محمد دراج: **الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الاخوة بربروس (1512–1543)**، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر العاصمة، 2011م، ص 228-229.

-عمار بن خروف: **العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب 923–1069هـ/1517–1659**، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ، دمشق، 1983، ص 26.

-عزيز سامح التير: **الأتراك العثمانيون في إفريقيا شمالية**، دار النهضة العربية للنشر والطباعة، ترجمة محمود علي عامر، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1989، ص98 - 101.

- Fray Diego de Haëdo, Abbe de Fromesta : Histoire des rois d'Alger, traduite et annotée par H.-D. de Grammont, Adolphe Jourdan, Libraire – Editeur, 1881. P 22 – 24

- Moulay belhamissi: **alger , l’europe et la guerre secrete (1518 – 1830),** editions dahlab, alger, 1999, p.41.

- Moulay belhamissi: **histoire de mostaganem**, centre national d’études historiques, Alger, 1976, p75.

- Doncel Gregorio sanchez : Presencia de España en Orán, 1509-1792, estudio teologico de san ildefonso semi nario conciliar, toledo, 1991, P 201 - 222.

- E. Pellissier: Mémoires historiques et géographiques sur l'Algérie, Imprimerie Royale, Paris, France, 1844

التعليقات:

[1] – مدينة جزائرية عتيقة تقع على ساحل البحر الابيض المتوسط، إلى الشرق من مدينة الجزائر بها ميناء هام، يشتهر سكانها بامتهان حرفة الصيد، البحري والفلاحة، والموسيقى. أنظر المزيد في: حسن الوزان: **المصدر السابق**، ص 42.

[2] – مدينة جزائرية عتيقة تقع جنوب مدينة الجزائر، على بعد 90كلم تقريبا، بعد جبال الاطلس التلي، يعود تاريخها إلى عهد قديم، إذ دلت الحفريات على وجود مدينة رومانية بها كانت تسمى مديكس، بالقرب من موقعها الحالي. تداولت عليها عدة حضارات وسكنتها الكثير من الشعوب، حتى دخلها الاتراك وأعادوا اعمارها وجعلوها قاعدة مهمة لهم، واسكنوا فيها قبائلهم وعشائرهم التركية، وبنوا فيها القصور والحمامات والصور التركي، واتخذوا منها عاصمة لبايلك

التيطري، بعد تقسيم حسان باشا البلاد إلى ثلاث بيايلك، وعين أول باي لها عام 1547م. كما سكنها المسلمون اللاجئون من الأندلس ومعهم اليهود الفارين من الأندلس آنذاك. أنظر: حسن الوزان: **المصدر السابق**، ص 41.

[3] – مدينة جزائرية عتيقة تقع في الداخل، إلى الغرب من مدينة الجزائر، بناها الرومان وأسموها ماكنانة، تقع على قمة جبل، عرفت عدة تطورات في عمرانها عبر العصور، سكنتها قبائل أمازيغية في أول الأمر غير أنها عرفت قدوم أعداد هائلة من الأندلسيين والأتراك في القرن السادس عشر الميلادي، وهي اليوم تابعة لولاية عين الدفلى، يشتهر سكانها بامتهان حرفة الفلاحة، والصناعات التقليدية أنظر: حسن الوزان: **المصدر السابق**، ص 34-35.

[4] – **شارل الخامس** (1500م – 1558م)، بالإنجليزية Charles V، حاكم الامبراطورية الرومانية المقدسة منذ عام 1519م، وللممالك الاسبانية من 1516م حتى تنازله عن الحكم في 1556م. قام بتوحيد عدة ممالك ضمن الإمبراطورية الرومانية المقدسة (إسبانيا، نابولي، صقلية، هولندا البورغونية، ألمانيا، إضافة إلى مستعمرات إسبانيا في أمريكا). هو ابن فيليب الأول وخوان ملكة قشتالة. جداه من ناحية الأب هما الإمبراطور ماكسيمليان الأول، وماري دوقة بورغونيا. وجداه من ناحية الأم هما فرديناند الثاني ملك أراغون، وإيزابيلا الأولى ملكة قشتالة. في 10 مارس 1526م تزوج شارل الأول من ابنة عمه إيزابيلا أخت جون الثالث ملك البرتغال. وأنجب منها فيليب الثاني، وماريا وجون أنظر المزيد:

- Amédée Pichot: **charls-quint chronique de de sa vie politique de son abdication et de sa retraite dans le cloitre de youste**, furne et c, libraires-éd, paris, 1854.

[5] – السلطان سليم الأوّل هو تاسع سلاطين الدولة العثمانية، وأول من حمل لقب أمير المؤمنين من آل عثمان. حكم (من 1512م إلى 1520م)، حيث وصل إلى السلطنة بعد انقلاب قام به على والده بايزيد الثاني بدعم من الجيش الإنكشاري. غزا بلاد فارس وهزم الصفويين في 1514م، وبلاد الشام 1516م، ومصر بعد هزيمته للمماليك عام 1517م، وضم الحجاز واليمن. وكان من نتائج فتوحات السلطان سليم الاول أن ازدهرت الدولة العثمانية في أيام ابنه وخليفته سليمان القانوني. أنظر: محمد فريد بك المحامي: **المرجع السابق**، ص 188 – 192.

[6] – أبو حمو الثالث الملقب ببوقلمون تولى الحكم في تلمسان عام 1503م بعد عزل ابي زيان احمد (المسعود) بن محمد الثابتي وسجنه. فر إلى اسبانيا أمام حملة عروج على تلمسان ثم عاد إلى الحكم بمساعدة الاسبان عام 1518م، وقتل عروج، ومات أبو حمو في نفس السنة. أنظر: مبارك بن محمد الهلالي الميلي: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، مكتبة النهضة الجزائرية، ثلاثة أجزاء، الجزء الثاني، الجزائر، 1964، ص 463.